بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ من أعظم نعم الله على أمَّة الإسلام، بل على النَّاس جميعًا؛ نعمة إنزال القرآن.

القرآنُ كلامُ الله الكريم، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، ودين الله القويم، الَّذي أخرج به النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [سُورَةُ إبراهيم]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [سُورَةُ الإسراء].

وقد خصَّ الله ـ سبحانه ـ هذا الشَّهرَ الَّذي بين أيدينا ـ شهر رمضان ـ بإتمام هذه المنَّة العظيمة، وإكمال هذه النِّعمة الجليلة، تشريفًا له وتفضيلاً، قال الله عز وجل: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: 185].

قال أهل العلم: إنَّما خصَّ الله شهر رمضان بفرض الصَّوم لِما حصل للنَّاس فيه من إكمال النِّعمة عليهم بإنزال القرآن.

يقول العلاَّمة ابن السَّعدي: «فحقيقٌ بشهرٍ هذا فضله وهذا إحسان الله عليكم فيه؛ أن يكون مَوْسِمًا للعبادة، مفروضًا فيه الصِّيام»[«تيسير الكريم الرَّحمن» (ص71)].

ويقول الشَّيخ الطَّاهر بن عاشور: «واختير شهر رمضان ـ يعني لفرض الصِّيام ـ من بين الأشهر؛ لأنَّه قد شَرُف بنزول القرآن فيه، فإنَّ نزول القرآن لَمَّا كان لقصد تنزيه الأمَّة وهُداها؛ ناسبَ أن يكون ما به تطهير النُّفوس والتَّقرُّب من الحالة المَلَكيَّة واقعًا فيه» [«التَّحرير والتَّنوير» (2/172)].

فرمضان هو شهر القرآن نزولاً، فعلى أهل الإيمان أن يجعلوه شهر القرآن كذلك إقبالاً وتلاوةً، تدبُّرًا وتفهُّمًا، حفظًا ومدارسة، عملاً وامتثالاً.

ولهذا كان من هدي نبيِّنا صلى الله عليه وسلم في هذا الموسم المبارك والوقت الفاضل أن يخصَّ كتاب الله بمزيد اعتناء، وكبير اجتهاد، فكان

يتدارس القرآن مع جبريل عليه السلام، وذلك في كلِّ ليلة من لياليه، وكان يطيل القراءة في قيام رمضان ما لا يطيل في غيره، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود النَّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الرِّيح المرسلة» [رواه البخاري ومسلم]، وفي رواية لأحمد: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض الكتاب على جبريل عليه السلام في كلِّ رمضان، فإذا أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم من اللَّيلة الَّتي يعرض فيها ما يعرض، أصبح وهو أجود من الرِّيح المرسلة، لا يسأل عن شيء إلاَّ أعطاه، فلمَّا كان في الشَّهر الَّذي هلك بعده عرض عليه عرضتين».

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: أتيت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في ليلة من رمضان، فقام يصلِّي، فلمَّا كبَّر قال: «**اللهُ أَكْبَرُ، ذُو المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ**»، ثمَّ قرأ البقرة، ثمَّ النِّساء، ثمَّ آل عمران، لا يمرُّ بآية تخويف إلاَّ وقف عندها، ثمَّ ركع يقول: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ**» مِثْلَ مَا كَانَ قائمًا، ثمَّ رفع رأسه فقال: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ**» مثل ما كان قائمًا، ثمَّ سجد يقول: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**» مثل ما كان قائمًا، فقال: ربِّي اغفر لي مثل ما كان قائمًا، ثمَّ سجد يقول: سبحان ربِّي الأعلى مثل ما كان قائمًا، ثمَّ رفع رأسه فقام، فما صلَّى إلاَّ ركعتين حتَّى جاء بلال فآذنه بالصَّلاة».[رواه أحمد].

وعلى هذا النَّحو جرى عمل السَّلف الصَّالحين وهديهم، فكانوا إذا دخل رمضان أقبلوا على كتاب الله إقبالاً عجيبًا، وضاعفوا من تلاوته والقيام به، وانقطعوا إليه، واشتغلوا به عن غيره.

روى الإمام مالك في «الموطَّأ» عن السَّائب بن يزيد قال: «أمر عمر بن الخطَّاب أبيَّ بن كعب وتميمًا الدَّاري أن يقومَا للنَّاس بإحدى عشرة ركعة، قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين[1]، حتَّى كنَّا نعتمد على العصيِّ من طول القيام، وما كنَّا ننصرف إلاَّ في فروع الفجر» أي في أوائله.

وكان بعض السَّلف يختم القرآن في قيام رمضان في كلِّ ثلاث

(1) هي السُّور ذوات المائة آية أو أكثر، وهي الَّتي تلي السَّبع الطِّوال.

ليال، وبعضهم في كلِّ سبع، منهم قتادة، وبعضهم في كلِّ عشرة، منهم أبو رجاء العطاردي، وكانوا كذلك يكثرون من تلاوة القرآن في غير الصَّلاة، فكان قتادة يختم في كلِّ سبع دائمًا، وفي رمضان في كلِّ ثلاث، وفي العشر في كلِّ ليلة، وكان الأسود يقرأه في كلِّ ليلتين من رمضان، وكان النَّخعي يختم في كلِّ ثلاث وفي العشر الأواخر في كلِّ ليليتين، وكان الزُّهري إذا دخل رمضان قال: «إنَّما هو تلاوة القرآن وإطعام الطَّعام»، وكان مالك إذا دخل رمضان نَفَرَ من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف، وقال عبد الرَّزَّاق: «كان سفيان الثَّوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادات وأقبل على قراءة القرآن» [«لطائف المعارف» لابن رجب (ص236)].

فهذا هو هدي أسلافنا الصَّالحين في هذا الشَّهر الكريم، فمن كان مستنًّا فَلْيَسْتَنَّ بهم؛ فهم القوم لا يشقى متَّبعهم.

فاحرص ـ أيُّها الموفَّق ـ على الإقبال على كلام ربِّك والإكثار من تلاوته، وأنت في هذا الشَّهر الَّذي أُنزل فيه، وخصِّص بعض وقتك لحفظ ما استطعت منه، واطلب الهداية فيه، وإيَّاك أن ترغب عنه؛ فتضلَّ وتشقى.

وقد يُشكل ما أوردته من الأخبار آنفًا مع ما جاء عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم من نهيه لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن يقرأ القرآن في أقلّ من ثلاث. [رواه الدارمي وسعيد ابن منصور، وأصله في الصحيحين)]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلاَث لَمْ يَفْقَهْهُ**»؟! [رواه أحمد].

وجوابه أنه يُحتمل أنَّ النَّصَّ في ذلك لم يبلغهم[2]، أو أنَّهم كانوا يرون جواز ذلك في الأوقات والأمكنة الفاضلة[3].

وممَّا ينبغي أن يعلم؛ أنَّ المقصود من تلاوة القرآن ليس هو تحريك اللِّسان فحسب، بل المقصود الأكبر من ذلك إنَّما هو التَّدبُّر الَّذي يورث الخشية، والخشية هي الَّتي تدفع صاحبها إلى العمل، فيمتثل أمر القرآن، ويجتنب نهيه، ويقف عند حدِّه، ويكون كما كان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن.

وقد أرشدنا ربُّنا ـ جلَّ في علاه ـ إلى هذه الحكمة، وبيَّن لنا أنَّه

(2) انظر «السِّلسلة الصَّحيحة» (5/601).

(3) انظر «لطائف المعارف» (ص237).

من أجلها أنزل القرآن، قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [سُورَةُ ص]، وقد ذمَّ سبحانه من لم يتدبَّر وَحْيَه وكلامه فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [سُورَةُ محمد]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [سُورَةُ النساء]، وبيَّن جلَّ ذكره كذلك أنَّ سبب ضلال من ضلَّ عن الصِّراط المستقيم ترك تدبُّر القرآن فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾ [سُورَةُ المؤمنون]، وأخبر تعالى أنَّ كلامه يزيد المؤمنين إيمانًا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [سُورَةُ الأنفال]، وأنَّ صالحي أهل الكتاب يخرُّون عند سماعه سجَّدًا ويزيدهم خشوعًا: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ١٠٩﴾ [سُورَةُ الإسراء].

وقد وصف الله كلامه بأنَّه أحسن الحديث، وأنَّ له تأثيرًا عجيبًا على قلوب وجوارح أهل الإيمان: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [سُورَةُ الزمر].

وهذا جبير بن مطعم رضي الله عنه سمع النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقرأ آيات ـ وكان إذ ذاك مشركًا ـ فكاد قلبه أن يطير، وكان ذلك سببًا لإسلامه، فقد روى البخاري عنه أنَّه قال: سمعت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطُّور، فلمَّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ٣٧﴾ [سُورَةُ الطور]، قال: كاد قلبي أن يطير.

وقد توعَّد الله من كان قاسي القلب لا يتأثَّر عند سماع القرآن فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ [سُورَةُ الزمر]، وقال سبحانه: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [سُورَةُ الحشر].

فسبحان من جعل الجبال الشَّامخة العظيمة تخشع وتتصدَّع من القرآن، وإلى الله المشتكى من قلوب تُتلى عليها الآيات الكثيرة، بل السُّور الطَّويلة فلا تخشع ولا تخضع! فأيُّ خير في قلب أضحت الحجارة الصَّلبة أرقّ منه: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: 74]، لذلك عاتب الله عباده المؤمنين على عدم خشوعهم عند سماع الذِّكر، وحذَّرهم من مشابهة أهل الكتاب في ذلك فقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [سُورَةُ الحديد].

فالمقصود ـ إذن ـ من تلاوة القرآن ظهورُ ثمرته، وحصول أثره في قلوب العباد وعلى جوارحهم، وإنَّ من أعظم الخذلان أن يضيِّع المسلم هذه الحِكم الَّتي من أجلها أنزل القرآن.

قال الفضيل بن عياض: «إنَّما أنزل القرآن ليُعمل به فاتَّخذ النَّاس قراءته عملاً»[4]، أي اقتصروا منه على مجرَّد التِّلاوة.

□ **لذلك حريٌّ بنا أن نسأل أنفسنا: كيف يكون انتفاعنا بالقرآن؟ وماذا ينبغي لنا أن نفعل حتَّى تؤثِّر فينا آياته؟**

وهذا المقصد الشَّريف لا يتسنَّى لنا إلاَّ إذا تحلَّينا بآداب تلاوة القرآن، وتخلَّقنا بأخلاق أهله، وسلكنا الأسباب المعينة على تدبُّره، ومن ذلك:

◪ ترتيله وعدم الإسراع في قراءته، والحرص على حضور القلب أثناء ذلك، فإنَّ قلَّة القراءة مع التَّدبُّر خيرٌ مِنْ كثرتها مع عدمه؛ لأنَّ التَّدبُّر والعمل هو المقصود من التِّلاوة، والتِّلاوة إنَّما هي وسيلة إلى ذلك. عن أبي جمرة الضُّبَعي، قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، قال: «لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول».

سئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قراءتهما واحدة، وركوعهما واحد، وسجودهما، أيُّهما أفضل؟ قال: «الَّذي قرأ البقرة، ثمَّ قرأ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾

(4) رواه الآجرّي في «أخلاق حملة القرآن» (ص37)، وكذلك ما سيأتي ذكره من الآثار فهي من مرويَّات هذا الكتاب.

سلسلة مطويات الفضيلة ②

رمضان
شهر الإقبال على القرآن

عباس ولد عمر
إمام خطيب - الجزائر العاصمة

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

[الإسراء: 106]».

وقال ابن مسعود: «لا تَهُذُّوه هذَّ الشِّعر، ولا تنثروه نثر الدّقل(5)، وقِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السُّورة».

فلا تبحث - يا عبد الله! - عن آخر السُّورة؛ فتكون كالَّذي يحمل على عاتقه عبئًا فهو يريد أن يتخلَّص منه، فإنَّ هذا ممَّا يحول بين القلب وتدبُّر القرآن، ولهذا كانت قراءة رسول الله ﷺ مفسَّرةً مُتَرَسِّلَةً حرفًا حرفًا [رواه أحمد]، وكان يرتِّل السُّورة حتَّى تكون أطول من أطول منها [رواه مسلم]، وقام ليلةً بآية يردِّدها حتَّى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [سورة المائدة] [رواه النسائي وابن ماجه].

قال العلاَّمة ابن القيِّم: «فلو علم النَّاس ما في قراءة القرآن بالتَّدبُّر؛ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّر حتَّى مرَّ بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه، كرَّرها ولو مائة مرَّة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خيرٌ من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهُّم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن» [«مفتاح دار السَّعادة» (1/553)].

فالقراءة المتأنِّيَّة أدعى للانتفاع بالقرآن الكريم، لا سيما مع إلقاء السَّمع وحضور القلب وخلوِّه من العلائق المانعة من التَّدبُّر، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [سورة ق].

◪ معرفة معاني كلام الله - جلَّ وعلا -، قال الإمام الطَّبري: «إنِّي أعجب ممَّن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذُّ بقراءته» [«معجم الأدباء» لياقوت الحموي (6/2453)].

فاحرص - يا عبد الله! - على معرفة تفسير كلام الله عزَّ وجلَّ، ولو بقراءة تفسير مختصر من التَّفاسير الَّتي تُعنى ببيان معاني القرآن الكريم على طريقة أهل السُّنَّة أتباع السَّلف الصَّالح.

والعجب ممَّن يقرأ بعض السُّور سنين طويلة، وهو لا يدري معاني

(5) الهذُّ: سرعة القراءة من غير تأمُّل، والدّقَل هو رديء التَّمر ويابسه فتراه لرداءته ويبسه لا يجتمع ويكون منثورًا.

بعض الكلمات الَّتي تتكرَّر معه دائمًا، كالصَّمد والكوثر وغير ذلك كثير، بل إنَّ كثيرًا من المسلمين لا يعرفون معاني سورة الفاتحة، مع أنَّهم يقرؤون بها في كلِّ ركعة من صلاتهم، فلا عجب بعد ذلك أن لا يُرى عليهم أثر الصَّلاة من الاستقامة والانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

◪ أن تخصِّص للقرآن أفضل الأوقات وأحسنها، لا أن تقرأ القرآن فقط في الأوقات الَّتي لا تجد فيها ما تشتغل به، ومن أفضل الأوقات بعد صلاة الصُّبح وجوف اللَّيل؛ لما يكون في ذلك من اجتماع الفكر وتواطؤ الهمِّ، والانقطاع عن الشَّواغل، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾ [سورة المزمل]، فقراءة اللَّيل أشدُّ وقعًا وأثرًا في القلب من غيرها.

◪ أن تعرض نفسك على القرآن، وذلك بأن تستحضر أنَّك المخاطب بنصوصه، وتنظر إلى موقفك من حلاله وحرامه، وأمره ونهيه، فإن وجدت نفسك على خير؛ فاحْمَد الله، واسأله أن يثبِّتك على ذلك ويزيدك من فضله، وإن لم تكن كذلك فعليك أن تسارع إلى مراجعة نفسك والمبادرة بالتَّوبة إلى ربِّك، قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**» [رواه مسلم]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**القُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِل مصدَّق، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إلى الجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِه سَاقَهُ إلى النَّارِ**». [رواه ابن حبان والطبراني في «الكبير»]، معنى «ماحل» أي مجادل، ومعنى «جعله أمامه» أي جعله له إمامًا وقائدًا، وذلك بالعمل بأوامره، واجتناب زوجره، والوقوف عند حدوده، قال الحسن البصري: «من أحبَّ أن يعلم ما هو؛ فليعرض نفسه على القرآن»، ويقول الإمام أبو بكر الآجري: «إذا درس القرآن فبحضور فهم وعقل، همّته إيقاع الفهم لما ألزمه الله: من اتِّباع ما أمر والانتهاء عمَّا نهى، ليس همَّته متى أختم السُّورة؟! همَّته متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتَّقين؟ متَّى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكِّلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصَّابرين؟ متى أكون من الصَّادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الرَّاجين؟ متى أزهد في الدُّنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذُّنوب؟ متى أعرف قدر النِّعم المتواترة؟ متى أشكر عليها؟ متى أعقل عن الله

جلت عظمته الخطاب؟ متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهد في الله عزَّ وجلَّ حقَّ الجهاد؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغضُّ طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحيي من الله حقَّ الحياء؟ متى أشتغل بعيبي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسب نفسي؟ متى أتزوَّد ليوم معادي؟ متى أكون عن الله راضيًا؟ متى أكون بالله واثقًا؟ متى أكون بزجر القرآن متَّعظًا؟ متى أكون بذكره عن ذِكر غيره مشتغلاً؟ متى أحبُّ ما أحبَّ؟ متى أبغض ما أبغض؟ متى أنصح لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أملي؟ متى أتأهَّب ليوم موتي وقد غيِّب عنِّي أجلي؟ متى أعمر قبري؟ متى أفكِّر في الموقف وشدَّته؟ متى أفكِّر في خلوتي مع ربِّي؟ متى أفكِّر في المنقلب؟ متى أحذر ممَّا حذَّرني منه ربِّي؟ من نارٍ حرُّها شديد، وقعرها بعيد، وغمها طويل، لا يموت أهلها فيستريحوا، ولا تُقال عثرتهم، ولا ترحم عبرتهم، طعامهم الزَّقُّوم، وشرابهم الحميم: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: 56]، ندموا حيث لا ينفعهم النَّدم، وعضُّوا على الأيدي أسفًا على تقصيرهم في طاعة الله وركوبهم لمعاصي الله، فقال منهم قائل: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾ [سورة الفجر]، وقال قائل آخر: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [سورة المؤمنون]، وقال قائل: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]، وقال قائل: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨)﴾ [سورة الفرقان]، وقالت فرقة منهم ووجوههم تتقلَّب في أنواع من العذاب فقالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦)﴾ [سورة الأحزاب].

فهذه النَّار يا معشر المسلمين! يا حملة القرآن! حذَّرها الله المؤمنين في غير موضع من كتابه، رحمةً منه للمؤمنين، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [سورة التحريم]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾ [سورة آل عمران]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩)﴾ [سورة الحشر]، ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ

النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [سورة الحشر].

فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح منه... فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصِّفة فقد تلاه حقَّ تلاوته، ورعاه حقَّ رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحرزًا، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلّ خير في الدُّنيا وفي الآخرة» [«أخلاق حملة القرآن» (ص27 - 30)].

◪ تجويد القرآن وتحسين الصَّوت به، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [سورة المزمل]، ولا يكون ذلك إلاَّ بمعرفة أحكام علم التَّجويد وقواعده، فيجب على المسلم أن يأخذ الضَّروريَّ منه حتَّى يستقيم لسانه بتلاوة كلام ربِّه، وعليه كذلك أن يزيِّن صوته بالقرآن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ**» [رواه البخاري].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتَ الحَسَنَ يَزِيدُ القُرْآنَ حُسْنًا**» [رواه الحاكم].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالقُرْآنِ الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللَّهَ**» [رواه ابن ماجه].

فتزيين الصَّوت بالقرآن أنفذ للفظه إلى الأسماع، ومعانيه إلى القلوب، ولكن يكون ذلك سليقة من غير تكلُّف ولا تنطُّع، أمَّا التَّطريب والتَّمطيط والقراءة بألحان المغنِّين ومقامات الموسيقى كما يفعله بعض القرَّاء اليوم، فكلُّ ذلك بدعة منكرة، أنكرها الأئمة كمالك وأحمد(6).

فمن حافظ على هذه الآداب كان له القرآن بإذن الله نورًا وضياءً، وهدًى وشفاءً، ورفعة وسَنَاءً، في دنياه وفي أخراه، أولئك الَّذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

وصلِّ اللَّهمَّ على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

(6) انظر «المدوَّنة» (1/288) و«زاد المعاد» (1/466).